لغـــــة العبيد . . !

للأستاذ سيد قطب

عندما قام الرئيس « لنكولن » بحركة تحرير العبيد فى أمريكا لم يكن خصومه هم « السادة » وحدهم ، بل كان بعض « العبيد » أيضا حرباً عليه !

كان بعضهم يهرب من « الحرية » التى يهبها له « لنكولن » ليرتد إلى « العبودية » فى بيت أسياده لأنه لا يطيق تكاليف الحرية ولا يستطيع مواجهة الحياة مستقلا !

ليس عبيد أمريكا وحدهم هم الذين يهربون من الحرية ؛ فعندنا فى مصر ، وفى سائر بلاد الشرق « عبيد » من نوع آخر عبيد يتزيون بزى الأحرار ، ولكن فى أعماق نفوسهم تلك العبودية التى يهربون إليها بين الحين والحين !

فى عدد ديسمبر من مجلة « الكاتب المصرى » قرأت للدكتور حسين فوزى مقالا بعنوان « جولة فى ما بعد الحرب » جاءت فيه هذه الفقرات :

« شعور واحد يتملكنى فى عشرة أيامى الأولى بلوندرة : شعور الإعجاب المتناهى بعاصمة الدولة التى أنقذت العالم من أعظم الشرور التى حاقت به فى تاريخه الطويل . قلب الأمة الباسلة العنيد التى وقفت وحدها فى مواجهة الأفاقين البرابرة الذين تحدوا البشرية جمعاء ، والتى تلقت الضربات الوحشية تنصب عليها من السماء حمما ونارا ، ومن قاع البحر حمما ونارا .

« كنت فخورا بإنسانيتى ، إذ وجدت من هؤلاء الناس درعا وواقيا للحضارة . وسواء عندى أن يكون دفاع الإنجليزى عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته ، ما دام هذا الدفاع فى ذاته ذودا عن الحضارة والإنسانية قطعا .

« أنا هنا بين رجال ونساء راضين بما حققوا . غلبوا على أمرهم ، وطردوا من أوربا والملايا ، وقطعت عليهم أغلب طرقهم البحرية ، وهاجمتهم الطيارات والقنابل الطائرة والغواصات فى كل مكان ، وأنذروا بالفناء قبل الغزو ، أو بالغزو فالفناء . ضيق عليهم أعداء البشرية الخناق ، على حدود مصر والسودان ، وفى العراق وكريت ومالطة والهند ، ولكنهم ثبتوا كصخور مالطة ودونكرك وجبل طارق ، وردوا الضربات بأقل منها ، فبمثلها ، فبأضعاف أضعافها . ثم جاء دورهم فى الغزو ، فنزلوا بالقارة الأوربية ، وحرروا فرنسا والبلجيك وهولاندة وإيطاليا ، ثم استعادوا بورما والملايا ، واكتسحوا قطعان الذئاب الفاشيستية يردونها إلى عقر أوكارها ، حتى قضوا عليها . وهم اليوم يتحكمون فى ديارها . إن قدموا الخير فبشعور إنسانى كريم ، وإن أعملوا الشر فبروح انتقام مفهوم ، عادل أو غير عادل تبعا لمزاج من يريد أن يبدى حكما » .

... « والصورة التى انطبعت فى رأسى لبريطانيا بعد إقامتى القصيرة فى لوندرة هى صورة شعب عامل مجد ، محب للنظام والعدالة ، يحترم حكومته لأنه اختارها ، ويتبرم بها تبرم الأخ بأخيه يوما أو بعض يوم . صورة شعب أمين فى معاملاته ، منطق فى عمله ، دون أن يكون للمنطق حساب فى تفكيره ، يتولاه القلق على معاشه ومستقبله فى العالم ، مع تمسكه بالقيم الروحية المطلقة التى تترجم بالعلم والفن والأدب ، والقيم الروحية فى السياسة التى تترجم بالنظر إلى العالم نظرة الشعب المسئول عن الخير العام للبشرية . وهذه فى رأيى مقومات الحضارة فى شعب كبير وأمة عظمى » . ثم يقول عن فرنسا :

« لحظة اللقاء ، لمست أقدامى أرض فرنسا بعد طول الغياب ، « أمنا فرنسا » ، كما يقول أهل لبنان ، ومربيتنا باريس . لن أنساك يا فرنسا قبل أن أنسى نفسى . تقطع يداى قبل أن يغدر بك وبيتك يا باريس ! » .

كاتب هذه الفقرات مصرى شرقى وهو رجل أعرفه ، وبينى وبينه مودة ، ولكن مودات الأرض كلها لا تخدر ضميرى وأنا أقرأ له هذه السطور !

هذا الرجل مصرى شرقى ، يرى كيف تعامل انجلترا بلاده ، وكيف تعامل فرنسا أم الشمال الإفريقى ، ويعرف كيف تصنع انجلترا فى الهند ، وكيف تصنع فرنسا فى الهند الصينية ... ثم يكتب كل هذا « الغزل » فى الدولتين الاستعماريتين اللتين تدوسان قومه وأقرباءه بالأقدام !

وأعجب شىء أنه كان « فخوراً بإنسانيته » فى لوندرة ! أية إنسانية تلك التى ترى الاستعمار ينتهك كل حرمات الإنسانية ، ويمتص دماء المستعمرات ، ويذل أهلها ويسلب أقواتهم وأرزاقهم ، ويبقيهم فى ربقة الجهل والتأخر والتوحش أحيانا حتى لا يفقد

قدرته على استغلالهم . ثم لا تغضب ، ولا تتألم ، ولا تثور ؟

نخور بإنسانيته . لأن الإنجليز يسلبون بلاده إنسانيتها . يفقرونها إلى حد أن يعيش الفلاح فى مستوى أقل من مستوى الماشية . يسرقونها فى أسهم قناة السويس ، وفى ثمن قطنها وصادراتها لهم فى الحرب وغير الحرب ، وفى صفقات المناقصات العامة ، ويستغرفون غذاءها وفاكهتها وملابسها فى زمن الحرب بلا مقابل فينشرون فيها السل والأنيميا وشتى أمراض التغذية ثم يكادون يتنصلون من ديونهم القليلة . يستخدمونها فى الحرب بكل قواها ، ثم يتنكرون لها بعد الانتصار ... أولئك هم السادة الذين يفخر العبيد بإنسانيتهم حينما يرونهم ينتصرون !

نخور بإنسانيته . لأن الإنجليز بعد نصف قرن فى السودان لا يزال سكانه فى الجنوب عرايا وسكانه فى الشمال مبعدين عن إخوانهم فى الجنوب . بدافع التعصب الدينى . لأن دماء الصليبيين لا تزال تجرى فى دماء المستعمرين . وبدافع الاستغلال القذر لأن موارد الجنوب يجب أن تبقى للاستعمار !

نخور بإنسانيته . لأن الهند بعد ثلثمائة عام فى الحكم البريطانى ، لا تزال أفقر الشعوب وأقذرها . وهذه القذارة تنفر الدكتور حسين فوزى وتطلق لسانه بشتيمة الهند والهنود فى كتاب سابق له . ولكنها لا تحنقه إطلاقا على الحكم البريطانى القذر لأن السادة لا يحنق عليهم العبيد !

نخور بإنسانيته . لأن الإنجليز حاربوا الصين مرة لسبب واحد ، وهو أنها عزمت على تحريم تدخين الأفيون . حينما تقتضى « الإنسانية » أن يظل الصينيون « مساطيل » لا يفيقون لأن « الانبساط » والانسجام خير يجب أن يتمتع به الصينيون .

نخور بإنسانيته . لأن الإنجليز نشروا وباء الكوليرا فى حربهم مع « البوير » فى جنوب أفريقيا ؛ فكانت هذه وسيلة « إنسانية » للانتصار فى الحروب !

نخور بإنسانيته . لأن فاجعة « دنشواى » كانت انتصاراً للروح الإنسانية وللضمير الانسانى فى تاريخ الشعوب !

نخور بإنسانيته . لأن الإنجليز يقفون فى وجه التحرر لا فى مستعمراتهم فقط ، ولكن فى مستعمرات سواهم ، كما صنعوا فى أندونسيا ، حينما هبت تحارب الوحوش الهولنديين !

نخور بإنسانيته . لأن الإنجليز يرتكبون فى فلسطين من الجرائم الإنسانية ما تقشعر له الأبدان فى سنة ١٩٣٧ . واليوم يجلدهم اليهود علناً فلا يتحركون !

ثم « أمنا فرنسا ، ومربيتنا باريس » . . . إلى آخر هذا النزل السخيف !

« أمنا فرنسا — كما يقول أهل لبنان — ولم يكن منصفا فيقول : « كما كان يقول أهل لبنان » :

لقد تحرر لبنان من تلك العبودية يا دكتور فوزى . لقد تحررت أرضه ، كما تحرر ضميره . ولعلك لا تذكر واقعة اعتقال رئيس الجمهورية وأعضاء حكومته فى قلعة راشيا . تحرر لبنان فلم يعد ينطق تلك الكلمة المجرمة المخنثة : « أمنا فرنسا » .

تحرر لبنان ، وتحررت سوريا . وبقى أن تتحرر مراكش ، وأن تتحرر تونس ، وأن تتحرر الجزائر . وبقى أن تتمكن هذه الدولة المتبربرة فى حدودها القومية . فإذا شئتم حينذاك أن تلجأوا إلى حضن أمكم الحنون . فمع السلامة . ولتذهبوا إليها هناك أجمعين!

واسمع هذه البرقية لمراسل الأهرام فى نيويورك :

« تلقت جريدة (نيويورك تيمس) رسالة من السيد محمد أبو الأحرص سكرتير (لجنة المطالبة بحرية شمال أفريقيا) طالب فيها بالحاح بوجوب رفع الستار (الحديدى) المضروب حول مراكش والجزائر وتونس وبالسماح للصحفيين الأجانب بحرية الدخول فى هذه البلاد الثلاثة .

وذكر السيد أبو الأحرص الذى يقول إنه يمثل عشرين مليونا من سكان شمال أفريقا أنه حدث فى يوم ٦٢ مايو سنة ١٩٤٣ أن قتل عشرة آلاف وطنى تونسى وسجن أربعون ألفا من غير محاكمة ؛ وأن عبد الناصف باى تونس عزل ونفى مع أن الحلفاء يملكون من الوثائق ما يثبت أنه كان يقاوم سلطات الاحتلال الألمانية مقاومة شديدة .

وزعم أخيراً أنه فى يوم النصر فى سنة ١٩٤٥ ذبح أربعون ألفا من الجزائريين وسجن مائتا ألف وتهدمت بيوت ثلاثة آلاف من الوطنيين » .

وعلام كل هذا الغزل ؟ و« شعور الإعجاب المتناهى » ؟ لأن هذه الأمة ، إنجلترا « وقفت وحدها فى مواجهة الأفاقين البرابرة الذين تحدوا البشرية جمعاء » !

أى أفاقية ؟ وأى برابرة ؟ يا دكتور فوزى ؟ وأية بشرية تلك التى تحدوها ؟

الأفاقون والبرابرة هم أولئك المستعمرون الذين يمتصون دماء البشرية ، ليتوافر للانجليزى الزبد والويسكى والديكة الرومية فى عيد الميلاد !

الأفاقون والبرابرة ، هم الذين يتسببون فى إصابة مليون مصرى بالسل فى زمن الحرب ، لأنهم يسرقون المواد الغذائية مقابل عملة ورقية لا رصيد لها : ثم يتنكرون لمصر وللدين المصرى الزهيد !

الأفاقون والبرابرة هم الذين يجلدهم اليهود علنا فى الشوارع ، فلا يحركون ساكنا ، بينما يمثلون بالجثث أشنع تمثيل حينما يهب العرب للمطالبة بحقهم المشروع !

ولقد كان جائزاً أن تنتشر هذه الأسطورة : أسطورة أن الإنجليز غير الألمان وأن هؤلاء وحدهم أفاقون وبرابرة ، وأن الإنجليز حماة الإنسانية المتحضرون . حينما كانت رحى الحرب دائرة . حينما كان الذهب الإنجليزى — أو البنكنوت المزيف — يتدفق على مراكز الدعاية ، وفى جيوب الصحفيين والكتاب ، فتنطلق الألسنة بالحمد والثناء لحماة الديمقراطية ، وللحرية ، وتنطلق بالهجاء والاتهامات للبرابرة الألمان ، وحينما كانت الدعاية الإنجليزية تملأ الآفاق ببشريات الحرية العالمية ، والأمن من الجوع والخوف والمرض والجهل . وحينما كان المخدوعون يستغرقون فى الأحلام اللذيذة على صدى هذه الوعود الجميلة .

ويومها كم من أصوات ارتفعت فى محطات الإذاعة بالشرق ، وكم من أقلام انطلقت فى صحافة الشرق ، تمجد أولئك اللائكة الأطهار الذين يريقون دماءهم فى سبيل البشرية المهددة بالوحوش النازيين !

ذلك أن الذهب الإنجليزى — أو البنكنوت المزيف — كان من القوى والتدفق بحيث ينطق البكم ، ويسمع الصم . وذلك أن الوعود المسولة خدعت بعض المخدوعين ، فتاهوا فى أحلام الحرية والاستقلال والجلاء . وإن كان ضمير الأمة لم ينخدع لحظة واحدة ، لأنه كان أصدق حساسية من أولئك المذبعين والصحفيين والكتاب !

أما اليوم ، فكيف تبقى عين واحدة مغلقة . اليوم وقد خلع الإنجليز القفاز الحريرى وارتدوا جلد النمر . اليوم ما الذى يخدع مصرياً واحداً ، أو شرقياً واحداً ، فيطلق لسانه بمثل هذا الغزل العجيب ؟ !

وفرنسا ، فرنسا أم الحرية ، كما يقول عشاقها ، كيف بعد حادث راشيا ، وكيف بعد مؤامرتها على قتل وزراء سوريا وتوابها فى البرلمان ، تلك المؤامرة القذرة التى لم تتم بسبب وقوع وثائقها فى يد الحكومة السورية فى الوقت المناسب .

فرنسا التى تذبح فى يوم النصر أربعين ألفاً من الجزائريين . والتى تقيم سوراً حديدياً حول الشمال الإفريقى كله ، يمنع عنه العلم والنور والحرية والتقدم . فرنسا هذه كيف يحتلج بحبها ضمير إنسانى واحد ، بله أن ينطلق لسان لها بمثل هذا الغزل العجيب !

وليس المتغزلون فى انجلترا وفرنسا وحدهم هم عبيد الشرق المنكوب ! هنالك من يتغزل فى «روسيا» فى هذه الأيام . وحقيقة إن بعدنا عن فم الدب بعض الشىء قد يجعلنا أقل حنقاً عليه . ولكن هنالك من ينسى مصريته ليذكر «روسيا» العزيزة وتلك لغة العبيد .

لقد سمعنا طويلا : أمنا فرنسا ، أمنا انجلترا ، أمنا روسيا ! بابا ستالين ! كما سمعنا من يقول : تقدم يا روميل ! أيام العلمين !

ولقد آن أن يخفت صوت العبودية فى هذا كله ، ليرتفع صوت واحد : أمنا مصر . عمنا الشرق . أبونا النيل .

أيها العبيد ! تحرروا مرة من لوثات الضمير

أيها الدعاة فى الحرب وغير الحرب !

كفروا عن جريمتكم وعودوا مصريين . وشرقيين !

إن أوربا المتبربرة قطيع واحد من الوحوش الواغلة فى دماء البشرية ، المعتدية على كرامة الإنسانية ؛ فليس بأنسان من لا يغضب لكرامته ولكرامة «الإنسان» التى يذلها الاستعمار فى كل مكان . وهذه البشرية لن ترفع رأسها إلا يوم أن تسحق هذه اللعنة البغيضة لعنة الاستعمار والمستعمرين . ونحن فى الشرق لا ينبغى أن يقوم بيننا وبين هذا الغرب المتبربر سلام ، إلا حين تنكمش هذه الوحوش الآدمية فى داخل حدودها أو فى داخل أقفاصها !

وما يجوز أن يرتفع صوت واحد بالثناء على قوم حاربوا لأنفسهم ، دفاعا عن الزبد الذى يأخذونه من بين شفتى العالم ، ليستمتعوا ، ويصاب بالسل آخرون

إن هؤلاء المستعمرين هم لعنة هذه الأرض التى لا يجوز أن تضمر لها غير الحقد والضغن . فهم الذين يثيرون الحروب العالمية ويتمسحون فى الألمان وغير الألمان .

والألمان مثلهم . . . كلهم سواء . وحوش آدمية متبربرة ، تتبدى فى أزياء من الحضارة خادعة . فلن تكون حضارة صادقة مع ضمير متعفن كضمير الاستعمار .

الحقد ! الحقد المقدس أيها الشرق المنكوب هو وحده المنقذ حين يفتح فاه ، فيلتهم قطاع الطرق اللصوص .

أما أولئك المتغزلون فى أوربا فليتواروا حياء ، فليس الوقت وقت الغزل ، بل الساعة ساعة الصراع ألا ولتنطلق من كل فم وقلب صيحة واحدة مدوية : الموت للاستعمار والويل للمستعمرين !

سيد قطب